﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ ٨٣

تسأل الآية الكريمة فى أسلوب الإنكار : أفغير دين الله تعالى الّذى أكمله ورضيه لعباده وأتمّ به النّعمة عليهم وبعث به خاتم الأنبياء والمرسلين يريد أهل الكتاب الّذين أخذ الله تعالى بواسطة موسى وعيسى عليهما السّلام الميثاق عليهم بأن يؤمنوا به وينصروه ، أو يريد ذلك غير أهل الكتاب ، وله جلّ وعلا استسلم وانقاد وخضع كلّ من فى السّماوات والأرض طوعاً وكرها وإليه يرجعون يوم القيامة كي يجازي جلّ وعلا كلاًّ بعمله . أمّا الإسلام طوعاً فمن قبل المسلمين لله ربّ العالمين الموحّدين العابدين المطيعين المستسلمين المنقادين . وأمّا الإسلام كرهاً فمن قبل غير المسلمين لله ربّ العالمين المنقادين لإرادته جلّ وعلا الخاضعين لمشيئته فلا حول لهم ولا قوّة إلاّ بإذنه جلّ وعلا .

وإنّ من أوضح مظاهر الانقياد لله تعالى كرهاً ، أي بلسان الحال وإن لم يكن بلسان المقال ما نسمعه كلّ وقت من فرار زعماء الإلحاد والكفر والضّلال إلى الله تعالى حينما توصد أمامهم كلُّ الأبواب وتسدّ السّبل فلا يبقى سوى باب الله تعالى الواحد القهّار . وإنّ الأمثلة على ذلك أكثر من أن يأتي عليها الحصر . إنّ كلّ ما فى السّماوات وما فى الأرض خاضعٌ لله تعالى ممتثل لمشيئته وفيهما المؤمن والكافر ، وفرق بينهما هو خضوع المؤمن الكامل بلسان المقال والحال ، وخضوع الكافر بلسان الحال والمقال ، وإن كان المقال فى حقّ الأخير وخز ضمير أو وسوسة نفس وقد يكون فى هيئة فلتة لسان تعبّر أصدق تعبير عن صدق النّفس لحظةً من اللّحظات أو استيقاظ الضمير أو إشراق الفكر .

ويلاحظ أنّ نظرتنا راعت اسم الموصول للعقلاء « من » ومعروف أنّ الخضوع لله تعالى ينتظم الوجود كلّه .

(٨٤) قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ
وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ
مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ
مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ

ثمّة شبه كبير بين هذه الآية الكريمة وبين الآية الكريمة السادسة والثّلاثين بعد المائة من سورة البقرة . والخطاب هنا للمصطفى ﷺ . والمعنى أنّ أهل الكتاب وسواهم إذا ابتغوا غير الإسلام ديناً وآمن أهل الكتاب ببعض النّبيّن وكفروا ببعض فقل لهم أيّها الرّسول الكريم آمنّا بالله وحده لاشريك له وما أنزل علينا من قرآنٍ مجيد ووحي سماويّ، وما أُنزل على إبراهيم عليه السّلام أبي الأنبياء وابنيه إسماعيل وإسحاق عليهما السّلام ويعقوب بن إسحاق عليهما السّلام والأسباط الاثنى عشر أبناء يعقوب عليه السّلام . وما آتى الله سبحانه وتعالى موسى عليه السّلام من كتاب سماويّ تمثل فى التّوراة وعيسى عليه السّلام من كتابٍ سماويّ تمثل فى الإنجيل وما آتى الله تعالى النّبيّن من كتابٍ ووحيٍ سماويّين . لانفرّق بين أحدٍ منهم بأن نؤمن ببعض ونكفر ببعض كما فعل اليهود والنّصارى ونحن له مسلمون ، منقادون له جلّ وعلا بالطّاعة ، مخلصون له العبادة ، مقرّون له جلّ وعلا بوحدة الألوهة والرّبوبيّة ، ممتثلون لأوامره ونواهيه تعالى .

« والأسباط ولد يعقوب عليه السّلام . وهم اثنا عشر ولداً . ولد لكلّ واحدٍ منهم أمّةٌ من النّاس واحدهم سبْط »[١] والسِّبط : الجماعة والقبيلة الرّاجعون إلى أصلٍ واحد[٢] والسّبط فى بنى إسرائيل بمنزلة القبيلة فى ولد إسماعيل وسمّوا الأسباط من السّبط (بحركتين) وهو التّتابع ، فهم جماعة متتابعون[٣] .

---

(١) تفسير القرطبيّ ص ٥٢٥ .
(٢) تفسير القرطبيّ ص ٥٢٦ .
(٣) تفسير القرطبيّ ص ٥٢٥ .

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ (٨٥)

بعد أن بيّنت الآيتان الكريمتان السّابقتان أنّ دين الله تعالى الّذى رضيه لعباده هو دين الإسلام ، وأنّ المسلمين لله ربّ العالمين هم الّذين لايفرّقون بين أحدٍ من رسله جلّ وعلا ، بيّنت هذه الآية الكريمة التّالية أنّ الدّين المقبول من الله تعالى المرضيّ عنه هو دين الإسلام ، وأنّ من يبتغى غير الإسلام الّذى جاء به محمّد ﷺ الّذى نسخ الله تعالى به كلّ الأديان السّماويّة السّابقة ، ومن يبتغى غير الإسلام الّذى بعث الله تعالى به كلّ أنبيائه ورسله ، فلن يقبل منه أيّ عمل صالح فى هذه الحياة الدّنيا وهو فى الآخرة من الخاسرين الّذين قَدِم الله تعالى إلى ما عملوا من عملٍ فجعله جلّ وعلا هباءً منثوراً .

(٨٦) كَيْفَ يَهْدِي ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ

تتحدّث الآية الكريمة عن فريقٍ آخر من الكفّار وهم الّذين ارتدّوا بعد أن كانوا مسلمين . والآية الكريمة تسأل فى أسلوب الإنكار : كيف يهدى الله تعالى قوماً كفروا بعد أن آمنوا وذاقوا حلاوة الإيمان وبعد أن شهدوا أنّ المصطفى ﷺ رسول ربّ العالمين ، اعتقدوا ذلك بقلوبهم وأعلنوه بألسنتهم وترجموا بجوارحهم ما يدلّ على اعتقادهم وإيمانهم بالعمل الّذى أمروا بالقيام به ، وبعد أن جاءهم الآيات البيّنات والحجج الواضحات الدّالة على صدقه ﷺ من وحي سماويّ تمثّل فى القرآن الكريم والسنّة النّبويّة المطهّرة .

إنّ مغزى القول : كيف يهدى الله : أي لايهدى الله (١) .

ويصحّ أن تشمل الآية الكريمة الكافرين من أهل الكتاب الّذين كانوا يستفتحون بالنّبيّ الكريم الّذى أظلّ زمانه داعين الله سبحانه وتعالى أن يبعثه كي يتّبعوه ويقاتلوا المشركين وأن ينصرهم عليهم . فلمّا جاءهم ما عرفوا من الحقّ ببعث المصطفى ﷺ كفروا به فاستحقّوا اللّعنة والطّرد من رحمة الله تعالى .

---

(١) الجلالين .

أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمۡ أَنَّ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةَ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴿٨٧﴾

تبيّن الآية الكريمة أنّ جزاء الكافرين المرتدّين أنّ عليهم لعنة الله تعالى بمعنى الطّرد من رحمته جلّ وعلا ولعنة الملائكة ، ولعنة النّاس أجمعين مؤمنين وغير مؤمنين . أمّا لعن المؤمنين لهم فبسبب كفرهم . وأمّا لعن غير المؤمنين لهم فلأنّهم السّبب فى صدّهم عن سبيل الله تعالى .

(٨٨) خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ

وتتجلّى أسوأ مظاهر اللّعنة فى خلودهم فى نار جهنّم الّتى لا يخفّف عنهم عذابها ولا هم يُنْظرون كي يتوبوا ولا يمهلون كي يعتذروا .

وإنّ بين هذه الآية الكريمة وسابقتها وبين الآيتين الكريمتين من سورة البقرة الحادية والسّتين والثّانية والسّتين بعد المائة وجه شبه . جاء فى سورة البقرة قوله تعالى : « إنّ الّذين كفروا وماتوا وهم كفّار أولئك عليهم لعنةُ الله والملائكة والنّاس أجمعين . خالدين فيها لا يخفّف عنهم العذاب ولا هم ينظرون » .

وسبق أن بيّنّا أنّ الخلود يصحّ أن يعود إلى اللّعنة لكونها أقرب مذكور ، وإلى جهنّم لأنّ الخلود إنّما يكون فيها رغم عدم ذكرها فى الآيتين الكريمتين . وسبق أن بيّنّا السَّبب وراء ترجيح الرّأي الّذى يذهب إلى كون الخلود إنّما هو فى النّار لأنّ لفظة الخلود إنّما ترتبط فى القرآن الكريم بصريح لفظ النّار ، أو لفظ جهنّم ، أو لفظ العذاب ، أو لفظ السّعير . ولم ترتبط فى القرآن الكريم مرّة من المرّات لفظة الخلود بصريح لفظة اللّعنة . ولا زلنا نرى هذا الرّأي .

وفى حال الذّهاب إلى كون الضّمير عائداً إلى اللّعنة يكون الخلود فى النّار من مستلزماتها . فليس فى حقيقة الأمر ثمّة كبير فرقٍ بين الرّأيين أو التّفسيرين .

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٨٩)

والآية الكريمة التّالية دليل على أنّ رحمة الله تعالى تسبق دائماً غضبه ، ومغفرته تسبق سخطه . فهاهي ذي الآية الكريمة تستثنى من ذلك العذاب الأليم الّذين تابوا إلى الله توبةً نصوحاً فندموا أشدّ النّدم على ما بدر منهم ، وصمّموا على عدم العودة إلى ذلك الذّنب الكبير أبداً ، وأعطوا الدّليل الأكيد على توبتهم بعمل الصّالحات . إنّ الّذين يفعلون ذلك يستحقوّن أن يغفر الله تعالى لهم ويرحمهم مَنّاً مِنه جلّ وعلا وفضلاً .

﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ

تبيّن الآية الكريمة إحدى الحالات الّتي لا تقبل فيها التّوبة . إنّ الّذين كفروا بعد إيمانهم ثمّ ازدادوا كفراً لن تقبل توبتهم . فهؤلاء القوم آمنوا ، ثمّ كفروا . وبدلاً من أن يتوبوا إلى الله تعالى ازدادوا كفراً ، إلى أن توفّاهم الله تعالى على كفرهم فهؤلاء وقد بلغت روح الواحد منهم الحلقوم لن تقبل توبته وأولئك هم الضّالّون .

ومع أنّ الآية الكريمة شاملةٌ لكلّ من كانت هذه حاله ، فإنّ الكفار من أهل الكتاب تشملهم كذلك . فاليهود مثلاً آمنوا بموسى عليه السّلام وكفروا بعيسى عليه السّلام وازدادوا كفراً بمحمّد ﷺ . وأهل الكتاب عموماً إذا كانوا قد آمنوا برسول الله تعالى إليهم فإنّهم قد كفروا بمحمّد ﷺ وبمرور الأيّام ازدادوا كفراً .

جاء في التّوبة قوله تعالى في سورة النّساء[١] : « إنّما التّوبة على الله للّذين يعملون السّوء بجهالةٍ ثمّ يتوبون من قريبٍ فأولئك يتوب الله عليهم . وكان الله عليماً حكيماً . وليست التّوبة للّذين يعملون السّيئات حتىّ إذا حضر أحدَهُمُ الموتُ قال إنيّ تبت الآن ولا الّذين يموتون وهم كفّار . أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليماً » .

---

(١) الآيـة : ١٧ - ١٨ .

﴿٩١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ

الفدية : العوض والجزاء من المفتدى (١) .

تبيّن الآية الكريمة حال الّذين كفروا بمحمّد ﷺ ولم يؤمنوا حتّى توفّاهم الله تعالى : إنّ أولئك لن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به نفسه من عذاب الله تعالى الأليم .

وسواء أكان ذلك الذّهب قد أنفقه فى الحياة الدّنيا فى أوجه البرّ والأعمال الصّالحة الّتى جعلها الله تعالى هباءً منثوراً بسبب كفره ، أو كان يتمنّى أن يكون مالكاً له يوم القيامة كي يفتدي به نفسه ، فإنّ المقصود أنّ العذاب الأليم لاحقّ به وليس له ثمّة ناصر من قريب ولا صديق حميم . إنّ كلّ أعماله الصّالحة فى الدّنيا قد غدت هباءً منثوراً بسبب كفره ، وإنّ عذاب الله تعالى الأليم لن يدفعه عنه دافع ولا يصرفه صارف . روى أحمد والبخاريّ ومسلم عن أنس بن مالك أنّ النّبيّ ﷺ قال : يقال للرّجل من أهل النّار يوم القيامة أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شيءٍ أكنت مفتدياً به ؟ قال : فيقول نعم . فيقول الله : قد أردت منك أهون من ذلك . قد أخذت عليك فى ظهر أبيك آدم ألاّ تشرك بى شيئاً فأبيت إلاّ أن تشرك (٢) .

---

(١) تفسير الطّبريّ ٣ / ٢٤٥ .

(٢) تفسير ابن كثير ١ / ٣٨٠ .

(٩٢) ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾

البرّ : الجنّة فهي ثواب البرّ (١) .

تبيّن الآية الكريمة ثواب الإنفاق فى سبيل الله تعالى وتحثّ على إنفاق ما نحبّ . إنّا لن ننال الجنّة وهي ثواب البرّ وعمل الصّالحات حتّى ننفق ممّا نحبّ . وعليه ينبغي أن يكون المنفق طيّباً وليس خبيثاً ، جيّداً وليس رديئاً .

وتبيّن الآية الكريمة أنّ أيّ شيءٍ ننفق فإنّ الله سبحانه وتعالى به عليم ولا يخفى عليه جلّ وعلا شيء من أعمالنا ولا نوايانا . وقد جاء فى الحديث أنّ الله سبحانه وتعالى لايقبل من الأعمال الصّالحة إلاّ ما كان منها خالصاً لوجهه الكريم . قال الإمام أحمد عن أنس بن مالك . كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالاً ، وكان أحبّ أمواله إليه بيرحاء ، وكانت مستقبلة المسجد . وكان النّبيّ ﷺ يدخلها ويشرب من ماءٍ فيها طيّب . قال أنس : فلّما نزلت : لن تنالوا البرّ حتّى تنفقوا ممّا تحبّون قال أبو طلحة : يا رسول الله : إنّ الله يقول : لن تنالوا البرّ حتّى تنفقوا ممّا تحبّون ، وإنّ أحبّ أموالى إليّ بيرحاء وإنّها صدقة لله أرجو بها برّها وذخرها عند الله تعالى فضعها يا رسول الله حيث أراك الله . فقال النّبيّ ﷺ : بخٍ بخٍ ذاك مالٌ رابح ذاك مالٌ رابح وقد سمعت ، وأنا أرى أن تجعلها فى الأقربين . فقال أبو طلحة : أَفْعَلُ يا رسول الله . فقسمها أبو طلحة فى أقاربه وبنى عمّه . أخرجاه وفى الصحيحين أنّ عمر قال : يا رسول الله : لم أُصِبْ مالاً قطّ هو أنفس عندى من سهمى الّذى هو بخيبر ، فما تأمرنى به ؟ قال : أَحبس الأصل وسبّل الثّمرة (٢) .

وصلّى الله وسلّم على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين والحمد لله ربّ العالمين.

مساء يوم الجمعة ٢٧ / ١٢ / ١٤٠٤هـ

الموافق ٢٤ / ٨ / ١٩٨٤ م

---

(١) انظر تفسير الطّبريّ ٣ / ٢٤٦ وتفسير ابن كثير ١ / ٣٨١ والجلالين .

(٢) تفسير ابن كثير ١ / ٣٨١ .

فهرست الموضوعات

الموضوع	رقم الصّفحة
المقّدمة	٥
أوّلاً : تمام سورة البقرة	٧
بين يدي التّفسير	١٧
التفسير	٣٣
تفضيل الله تعالى بعض الرّسل والدعوة إلى التوحيد والأدّلة على البعث	٣٥
الحث على الإنفاق فى سبيل الله تعالى وشروطه وثوابه	٧٣
تحريم الرّبا والحثّ على الصّدقة	١١٥
الدَّين	١٣٥
خواتيم سورة البقرة	١٥٣
ثانياً : سورة آل عمران حتىّ نهاية الجزء الثّالث	١٧١
بين يدي التّفسير	١٨٩
التّفسير	٢٠٥
القرآن الكريم والمؤمنون به والكافرون	٢٠٧
متاع الدّنيا زائل ونعيم الآخرة مقيم	٢٢٩
مسلمون لله ربّ العالمين وكافرون وجزاؤهم	٢٣٩
تحذير المؤمنين من اتّخاذ الكافرين أولياء وكيفيّة حبّ الله تعالى	٢٥٥
آل عمران وزكريّا عليه السّلام	٢٦٥
مريم البتول وابنها عيسى عليه السّلام عبد الله وكلمته	٢٧٩
أهل الكتاب وبعض مظاهر مكرهم	٣٠٩
ذلّ الخيانة وعزّ الأمانة	٣٢٣
فهرست الموضوعات	٣٤٥